تمهيد:

النبي المرسل رحمة للعالمين

- الفجر المرتقب
- عهد مظلم
- علامات النبوة
- النبي المرتقب والمبشر به
- قدوم طال انتظاره
- لماذا لم يؤمنوا؟

أ . الفجر المرتقب

دنيا يسودها ظلام دامس... ظلام يحمل في طيّاته نوراً مرتقباً... وأصداءً تحمل بشرى ظهور نبي جديد... وتتسرب أصداء هذه البشرى، وتطرق الأسماع والقلوب حتى بدأ الكثير من أهل مكة يتحدثون عن هذا النبي المرتقب ويوصي بعضهم بعضا: "عليكم أن تسرعوا إلى هذا النبي حالما يظهر.. أسرعوا إليه وآمنوا به!"[1]

كل القلوب واجفة... فالآمال جميعها معقودة عليه... على خاتم المنقذين... والأمهات والآباء يطمعون أن يكون هذا النبي من نسلهم، لذا يسمي العديد منهم أبناءهم "محمدا."[2] ولكن النبي المرتقب يجب أن يكون من سلسلة نسب ذهبية، تبدأ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتنتهي بعبد المطلب فعبد الله.. كانت القلوب ترتقب هذا النور من هذا الطريق. وكانت الأحداث تشير إلى قرب قدومه، ودنو مجيئه.. فحلكة الظلام تؤذن بقدوم الفجر.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمةً تعطي للحياة معنى، أي تعطي للحياة غاية وهدفاً يستحق العيش من أجله، بل كانت أعمال الناس آنذاك مثلما قال القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ (النور:٣٩).

ولم تكن المشاعر والأفكار والتصرفات تتباين عن هذا كثيراً: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ (النور:٤٠).

كان اسم هذا العهد "عهد الجاهلية"، غير أن الجاهلية هنا لم تكن تأتي كنقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو نقيض الإيمان والاعتقاد. ولا أريد هنا أن أعرض -ولو بشكل موجز- مَعالم هذا القبح في ذلك العهد، لأنني لا أريد أن أعرض أمامكم -ولو لوقت قصير- لوحة سوداء مقززة. كما أن تصوير الباطل قد يفسد الأذهان ويضلها، وأنا أرى أن هذا يشكل جريمة. بيد أنه يلزم لفهم ذلك العهد أن نشير إلى بعض عاداته وتقاليده ليتسنى لنا أن نعي فضل الله على العالمين، ورحمة الرحمن الرحيم، في إرسال فخر الكائنات وسيد المرسلين.

---

[1] انظر إلى: السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٠٣-٢٠٤.

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/١٦٩.

إن مجيئه ﷺ كان من أكبر نعم الله ﷻ للعالمين، وأفضل إحسانه، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:١٦٤).

إذن، فانظروا إلى مدى رحمة الله ولطفه وإحسانه عندما يرسل إلى الناس رسولاً من عند أنفسهم، يحس بما يحسون، ويفكر كما يفكرون، ويكون لهم مرشداً وهاديا في الطريق الموصل إلى الله تعالى.. فإن احتاجوا إلى إمام تقدمهم وأصبح لهم إماما، وإن احتاجوا إلى خطيب اعتلى المنبر فكان خطيباً مفوّها، وإن احتاجوا إلى أمير كان لهم أميراً يرسل الرسائل للملوك ويختم المعاهدات، وإن احتاجوا إلى قائد تقدم صفوفهم في الحرب، وأصبح لهم قائداً أفضل من جميع القواد المتمرسين...

هناك عقيدة خاطئة لدى النصارى، فهم يعتقدون أن الله ﷻ قد ضحّى بعيسى عليه السلام ليفتدي به الخطيئة الأولى للإنسانية، أي يؤمنون بأن الله -سبحانه وتعالى عما يقولون- قد ضحّى بابنه المسيح لكي يصفح عن الإنسانية كلها، لذا فقد صلب المسيح على الصليب حسب هذه العقيدة الخاطئة، وهكذا تم الصفح عن الخطيئة الأولى التي بدأت مع آدم عليه السلام وانتقلت إلى كل إنسان، فكل إنسان يحمل هذه الخطيئة منذ مجيئه إلى الدنيا، ومنذ ولادته. وهذه عقيدة خاطئة من جهة، وضالة من جهة أخرى لكونها قابلة لتأويلات عديدة إلا أن لها تلميحاً صحيحاً، وهو أن الله تعالى أرسل أفضل خلقه محمداً ﷺ وأحبهم إليه رسولاً إلى الناس مع علمه بما سيتعرض له من أذى وآلام. وذلك لكي يخلصهم من الضلالة والانحراف والطغيان حتى لا يضيعوا في الطرق والمتاهات، بل يرتقوا إلى المستوى اللائق بالإنسان الكامل.. وحسب تعبير المحقق والمتصوف الشاعر "إبراهيم حقي"، فإن على المؤمنين أن يعرفوا ربهم ككنز في قلوبهم.

فالقلب مصدر للخزائن، بحيث أن الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلّى في هذا القلب. لا الكتب ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه، القلب فقط يستطيع أن يكون -ولو بمقياس صغير- ترجماناً له.

أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بياناً مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته. إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عما يبحث، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علماً بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلينا من أجل هذا.

ففي هذا العهد الذي اهتزت فيه جميع أسس الدين من قواعدها، وحرفت فيه الديانات السماوية من قبل أتباعها، لم يبق هناك سوى فئة قليلة من الموحّدين الذين كانوا يؤمنون بالله ﷻ، ولكن دون أن يدركوا صفاته وأسماءه الحسنى، لذا فما كانوا يعرفون كيف يوفون وظيفة العبودية لله حقها.

١. بصيرة عمياء

كان المشركون يعبدون الأوثان والأصنام التي ملأوا بها الكعبة، ويفخرون بهذه العبادة، ويجدون فيها السلوى. والذين كانوا يملكون نصيباً قليلاً من العلم كانوا يقولون بأنهم لا يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول عن لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣).

وهكذا، فإن شعور العبودية الذي أودع في فطرة الإنسان كأمانة مهمة تعرّض للخيانة وسوء الاستغلال.. فكيف يمكن أن يعبد الحجر والشجر والتراب أو الشمس والقمر والنجوم؟ بل كانوا يعبدون حتى بعض أصناف الأطعمة التي يعملونها بأيديهم كالحلوى والجبن، وبعد عبادتها لفترة من الوقت يقومون بأكلها إذا جاعوا.

ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التفكير الفاسد والفهم البالي فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس:١٨). و﴿أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣).

ثم ها هم يبحثون عن عذر لهذا التفكير المنحرف، وأكبر عذر يجدونه هو القول بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٧٠).

٢. براعم تُوأد

والقرآن الكريم يشير إلى شر آخر من شرور الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).

أجل، فما إن يبشَّر أحدهم بميلاد طفلة له حتى يربدّ وجهه غضبا، ويعروه السواد خجلا

من وقع هذا الخبر الأليم، فلا يستطيع أن يغشى الناس. فالخبر عنده بلغ من السوء حدًّا حدا به إلى الرغبة في التواري من القوم، ويوقن بأن عليه أن يختار أمراً من أمرين، ولكنه متردد لا يدري أيهما يختار: أيختار الإبقاء على حياة الطفلة، وتجرّع آلام الهوان من المجتمع، أم يقوم بغسل العار(!) بقتل تلك الطفلة ووأدها؟

تلك كانت المنزلة المهانة للمرأة في الجاهلية. ولم تكن مهانة المرأة هذه، وتحقيرها والحط من شأنها قاصرة على عرب الجاهلية وحدهم، فالوضع نفسه كان موجوداً في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذا، يمكن القول بأن ما قام به الإسلام فيما يتعلق بعالم المرأة بين عرب الجاهلية، يعدّ عملا لا مثيل له في قضية المرأة على نطاق العالم بأسره.

أجل، فقد كان القرآن أول من يقف في وجه مثل هذه الوحشية، فيحرّم قتل الأطفال تحت أي ذريعة من الذرائع: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام:١٥١). فكأن الله تعالى يقول لهم: لِمَ تقتلون أولادكم؟ إنني أنا الذي أرزقكم وإياهم.. ألا ترون أن وجه الأرض حافل بمئات من موائد الأطعمة المزجاة لكم؟ ألا ترون أن السماء تهرع لنجدتكم، والغيوم فيها مساقة لإنزال الماء والثلج عليكم؟ وهذه الملايين من أنواع النباتات على وجه البسيطة، من أنبتها غيري؟ وعلى الرغم من رؤيتكم لكل هذا، فأيّ عقل وأيّ ضمير وأيّ وجدان يسوقكم للخوف على رزقكم، فتقدمون على قتل أولادكم؟ إياكم أن تنسوا أن من يقترف مثل هذا الجرم لن يكون أهلاً لخطاب الله تعالى له أبدا، بل سيخاطب الله تعالى هؤلاء الأبرياء، ويسألهم عن الجرم الذي اقترفوه وكان سبباً لقتلهم؛ سينال الظالمون جزاءهم العادل لاقترافهم هذا الظلم الشنيع، والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩) تبين لنا بأسلوب يقشعر منه البدن طبيعة أخلاق ذلك العهد.

حضر مرة أحد الصحابة مجلس رسول الله ﷺ، وذكر له هذه الوحشية الجاهلية، وقال:

يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلمّا أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتّبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها، فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: "يا أبتاه! يا أبتاه!" فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[1] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء

[1] وكف: تقاطر. (المترجم)

رسول الله ﷺ: "أحزنتَ رسول الله ﷺ!" فقال له: «كُفَّ،[١] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنفْ عملَك.»[٢] فكأن رسول الله ﷺ كان يقصد من تكرار هذه الحادثة إفهامهم: "هكذا كنتم قبل الإسلام.. وما قمت باستعادة الحادثة إلا لأذكركم بالقيم الإنسانية التي منحها لكم الإسلام."

من هذا المثال الأليم المفجع، تدرك مدى الأزمة التي كان يعيش فيها إنسان ذلك العصر.. فإلى جانب آلاف الفظائع الأخرى، كانت تُحفَر هناك حفر عميقة في ظلام كل يوم في تلك الصحراء، ويرمى فيها أطفال أبرياء ليلقوا هناك حتفهم. أجل، لقد سبقت البشرية الضباع في الوحشية بمسافات كثيرة.. فالذي لا يملك المخلب والناب، كان مصيره الافتراس والقتل من قبل ذي المخلب والأنياب، وكان المجتمع يتقلب بين آلام أزمات حادة، ولم يكن هناك من ينهي هذه الأزمات، أو يجد لها حلاً ودواء.

في هذه الأثناء، يعتكف نبينا في غار حراء -الذي سيكون اسمه بين أمته فيما بعد "جبل النور"- ويفارق مجتمع الناس؛ هناك يثبت ناظريه في الأفق، وينتظر فجر الخلاص.. والظاهر أنه كان يضع جبهته على الأرض، ويبتهل لربه ساجداً لساعات طويلة، يسأله خلاص الإنسانية، وإرسال منقذ لها، ذلك لأن الشيخين عندما يقصّان هذه الفترة يستعملان تعبير "فيتحنث فيها"، وهذا التعبير يعني أنه قد اعتزل عن الناس وأسلم نفسه للعبادة.

أجل، كان رسول الله ﷺ يبقى أحياناً هناك، ولا يرجع إلى مكة إلا عندما تنفَد مؤونته، ثم يرجع إلى الغار مرة أخرى حاملاً معه ما يكفيه من الزاد.[٣] لا شك أنه كان في الغار يتأمل الوجود، وما وراء هذا الوجود.. يتأمل الخلق والكائنات، والغاية من هذا الخلق، والهدف منه.. ثم يتأمل ما آلت إليه الإنسانية من حال مفجِعة تقشعرّ منها الأبدان، وتتفطر لها القلوب.

٣. قيم متغيرة

أجل، لقد كان المجتمع منحدراً إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم الإنسانية، وانقلبت رأساً على عقب، فأصبحت الفضيلة عيباً، والعيب والنقيصة فضيلةً وفخراً.. الوحشية تُمجّد، والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما

---

[١] كُفَّ: أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

[٢] الدارمي، المقدمة، ١.

[٣] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتئن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والانحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيباً، ولم يكن الاحتكار شيئاً غريباً، بل أمراً مألوفاً.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يعدّ ذكاء ومهارة وحذقا.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قف!" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

وُلِدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِياءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغريهما يفترّان عن بسمة وفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدومه، مرددين في استقباله:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[1]

٤. إعداد إلهي

لقد كانت كل مراحل طفولته وشبابه ونضوجه بمثابة مقدمات وسلالم لنبوته، إلى درجة أنه ما إن أعلن نبوته ورسالته حتى آمن به من عرفه عن قرب.

فهو الصادق الذي ما جُرّب عليه كذب قط، وها هو يتكلم عن الله تعالى، وأنه رسول من عنده، إذن، فكيف يمكن لإنسان لم ينطق بكذبة واحدة في أصغر شأن من الشؤون أن يكذب في مثل هذا الموضوع الخطير، وفي هذا الموضوع العلوي؟[2] كان هذا شيئاً مستحيلاً، وأمراً محالاً. هكذا كان يفكر إنسان ذلك العهد. ومع أن الجميع لم يؤمنوا به، إلا أن من نبذ العناد والحسد، أسرع إلى الإيمان به.

صحيح أن العهد الذي كان يعيش فيه كان عهد جاهلية، ولكن صفة الجاهلية كانت بعيدة عن حياته الخاصة وخارجة عنها؛ فما عاش النبي حياة جاهلية قط، فلقد كان شخصاً

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٢٤١؛ دلائل النبوة للبيهقي، ٢/٥٠٧.
[2] انظر: البخاري، بدء الوحي ٣، ٦؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

أميناً، يعرفه الجميع بهذه الصفة؛ فلنفرض مثلاً أنك عزمت على السفر، وأردت أن تودع زوجتك في مكان، فإنك تستطيع دون أي تردد أن تودعها عند محمد الأمين، وأنت مطمئن البال بأنه لن يرفع طرفه لينظر إليها.. وإن كنت ترغب في إيداع مالك عند أحد الناس، فإنك لا تتردد لحظة واحدة أن تذهب، وتسلمه إليه، وأنت على يقين تام بأن ذرة واحدة من مالك لن يصيبها أي ضرر، وأنه في غاية الحفظ وأتمه.. وإذا أردت العلم اليقين في أمر من الأمور، فما عليك إلا المسارعة إلى الصادق الأمين، لتستمع إليه، وتُقيم الموضوع على ضوء بيانه، وأنت مرتاح البال؛ لأنه لم ينطق بكذبة واحدة طوال حياته.

أتريد دليلاً على هذا؟ حسناً.. ها هو يصعد الصفا، ويسأل الناس حواليه: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: "ما جرّبنا عليك كذبا." حتى عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل وغيرهم من أعداء الدين، كانوا من ضمن هؤلاء المجيبين والمصدقين.[1] فالجميع يسلمون بصدقه واستقامته وأمانته.

فقدَ أباه في بطن أمه، وفقد أمه في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وما أن بلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده كذلك.. كأن القدر كان يجرّده من كل شيء، ويهيئه لتسليم أمره كله لله ﷻ؛ فكل من مدّ يده إليه، أو أخذه في حمايته كان سرعان ما يرحل.. فكأن القدر كان يومئ بالحماية الإلهية الفعلية والمباشرة في ظل نور التوحيد، وتجلي سر الأحدية.. كان عليه أن يحس بكلمة التوحيد، وبجملة "حسبي الله" في أعماق وجدانه، وينطق بها.. كان من الضروري أن تفقد الأسباب الظاهرية قيمتها عنده.. ولقد حدث هذا فعلاً.

جاء إلى الدنيا من أب اسمه "عبد الله"، وأم اسمها "آمنة"؛ وليس هذا تصادفا، بل تقديراً إلهيّاً؛ فأمّ يحمل اسمها معنى الأمن والأمانة، وأب يحمل اسمه معنى العبودية لله تعالى، تهيئةربانية، وإعداد إلهي، لينشأ الأمين قبل الرسالة في جو من معاني العبودية.

نشأ يتيماً.. فلقد كان هناك في انتظاره عبء ثقيل، ووظيفة هامة، وكان عليه أن يتهيأ لها منذ الآن. كان عليه بلوغ الذروة في التوكل على الله، والاستعداد لمواجهة جميع الصعاب والمشاكل.. وقد حفظه الله تعالى من الغنى المفرط المؤدي إلى البطر والكبرياء، ومن الفقر المدقع المؤدي إلى الذل والعجز، وأنشأه شخصاً معتدلاً ومستقيماً في شؤون حياته طوال عمره، بعيداً عن الإفراط والتفريط.

إن من المهم جدًّا للقائد أن يمر بمثل هذه الأيام الصعبة.. فمن عرف معنى اليتم، يعرف

---

[1] البخاري، تفسير سورة (١١١) ١-٣؛ مسلم، الإيمان ٣٥٥.

كيف يكون أباً رحيماً على أمته، عطوفاً عليها.. كان عليه أن يذوق طعم الفقر لكي يحس بمعاناة الذين يقوم بأمر إدارتهم، وتصريف شؤون حياتهم. وهكذا، فإن خُلُق مساعدة اليتامى الفقراء، ومعاونتهم، والحدب عليهم، ورعايتهم، والاهتمام بهم كان من ضمن الخلق العظيم لرسول الله ﷺ الذي امتدت جذوره إلى هذه المرحلة من حياته، وشربت من مائها، وتنفست من هوائها. وعندما ارتقى الذُرى فيما بعد، لم يتخلّ عن هذا الخلق ولم يتبدل، ولم يغير سمة حياته البسيطة المتقشفة، فلم يقهر طوال حياته يتيماً، ولم يرد سائلاً ولم ينهره؛ ذلك لأن هذا الخلق كان مما علّمه الله ﷻ، وربّاه عليه حينما قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ۞ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَر ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:٦-١١).

وأنا كلما قرأت هذه السورة خطر على بالي أن أعرض يتمي على رسول الله ﷺ باعتباره شفيعاً لنا -مع أنني فقدتُ والدي منذ سنوات- فأقول له: "يا رسول الله! ها أنا ذا يتيم، واقف على عتبة بابك، فلا تطردني عن بابك، ولا تحرمني من شفاعتك."

٥. نور مرتقَب

كان جده عبد المطلب قد استشفّ فيه نور النبوة من زمن طويل، فقد كانت جميع أيامه معه أيام يمن وبركة؛ فكان يأخذه معه إلى مجالس الكبراء، ويكرمه هناك، فلربما رأى فيه منقذ البشرية، إذ كان يرى في نظرات عينيه عمقاً لم يره في أحد. كما أنه قد سمع الروايات المنقولة عن "لُؤَيّ" -أحد أجداده- حول ظهور نبي من نسله؛ واستناداً إلى هذه البشارة، لعله اكتشف علامات النبوة أو استشفها فيه، ولعل هذا كان هو السبب في حبه الشديد وشغفه الكبير بحفيده حتى أنه يغار عليه من عينيه. وعندما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً.. بكى لأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضم محمدا إلى صدره..[1] بكى هذا الشيخ هذا البكاء، وهو الذي لم تطرف عيناه أمام جيش أبرهة، ولم تدمع عيناه في حرب الفِجار مع القبائل العديدة المعادية التي استمرت سنوات عديدة، ولكن هذا الشخص العظيم بكى مثل طفل صغير قبيل فراق حفيده السعيد. وهكذا انتهت وصاية عبد المطلب وكفالته بوفاته وتوديعه للحياة، وكان على لؤلؤة الخَلق وجوهرته أن ينتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١٧٨/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٨/١.

٦. مكافأة جزيلة

وفى أبو طالب بوعده، فحمى رسول الله ﷺ مدة أربعين سنة تقريباً وسانده. ولم يبق معروفه هذا دون مقابل، إذ وهبه الله تعالى ابناً مثل علي ﷺ، وبينما كان نسل كل نبي يستمر عن طريقه، إلا أن نسل رسول الله ﷺ استمر عن طريق علي كرم الله وجهه، وهناك رواية عن رسولنا في هذا الخصوص.[1]

كان علي ﷺ يمثل جانب الولاية لرسول الله، إذ يُعدّ من هذه الناحية أمير الأولياء؛ فجميع أرباب الطرق ورجالهم سيذكرونه بالتقدير والأجلال حتى يوم القيامة وسينقادون له. فعلي المرتضى، الفارس المغوار، والحيدر الكرار، وصهر رسول العالمين ﷺ كان هدية رب العالمين لأبي طالب، جزاء العناية التي أبداها لرسوله الكريم، والمؤازرة التي قدمها له. وما كان أبو طالب ووالده عبد المطلب إلا أسباباً ظاهرية، وإلا فإن الله ﷻ كان هو صاحب الحماية الحقة له، وصاحب العناية به.

فبينما كان يرفع هذه الشخصية النادرة، ويسمو به إلى مرتبة النبوة، كان في الوقت نفسه يهيئ المجتمع لقبوله، إذ أصبحت إيماءات نبوته وعلاماتها تتضح يوماً بعد يوم، وأصبح محمد ﷺ شخصاً يتحدث عنه الكل، ويعرفه الجميع.. شخصاً ذا أهمية كرجل هذه الساعة ورجل كل ساعة.

جـــ- علامات النبوة

١. رحلته إلى الشام والراهب بَحيرَى

تشير كتب السير كلها إلى أن رحلته الأولى كانت إلى الشام مع عمه أبي طالب عندما كان عمره اثني عشر عاماً. وعندما حطّت القافلة في الطريق للاستراحة تُرك رسول الله حارساً وناظراً لها. في هذه الأثناء لاحظ راهب اسمه "بَحِيرَى" -يتلفظه البعض "بُحيْرى" خطأً- أمراً غريباً في هذه القافلة التي كان يراقب سيرها، إذ لاحظ أن هناك غيمة تتعقبها وتظللها، فإن سارت القافلة سارت معها، وإن وقفت وقفت معها. لذا، أرسل هذا الراهب من يدعو جميع أفراد هذه القافلة إلى تناول الطعام معه. وقد دهش أفراد القافلة من هذه

---

[1] في الحديث: إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب. (مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٢/٩؛ فيض القدير للمناوي ٢٢٣/٢؛ تاريخ بغداد للبغدادي ٣١٧/١).

الدعوة، فهذا الراهب لم يكن ليهتمّ بالقوافل من قبل. واستجاب للدعوة جميع أفراد القافلة عدا سيدنا محمد ﷺ، إلا أن الراهب لم يجد فيهم ضالته، فسألهم عما إذا كان أحد من القافلة قد تأخر عن حضور مأدبته، وعلى إثر الجواب الذي تلقاه منهم أرسل إليه يدعوه كذلك، وما أن رآه حتى علم أنه ضالته، وتوجه إلى أبي طالب يسأله عنه، فقال أبو طالب "إنه ابني"، ولكن الراهب لم يشأ تصديقه، ذلك لأنه توسم فيه أنه ضالته التي يطلبها.. إذن، فوالده يجب أن يكون متوفّى قبل ولادته. ثم دعا أبا طالب وأسرّ في أذنه بوجوب تخلّيه عن هذا السفر، وقال له بأن اليهود قوم يغلب عليهم الحسد، وأنهم ما إن يعرفوا من سيماه بأنه هو خاتم الأنبياء حتى يتعرضوا له بالأذى لكونه ليس منهم. واستجاب أبو طالب لنصيحته، وانسحب من القافلة بعد أن أبدى لأصحابه عذراً ما، ورجع بمحمد ﷺ إلى مكة.[1]

كان الراهب "بَحيرَى" محقّاً في كلامه، ولكن غاب عنه شيء واحد؛ وهو أن رسول الله ﷺ كان في حماية رب العالمين، حيث إن الآية الكريمة: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧) تشير إلى هذه الحماية والعصمة. أجل، كان هذا هو ما يقوله له ربه، وقد صدق له وعده.

٢. رحلته الثانية إلى الشام

قام فخر الكائنات برحلته الثانية إلى الشام، وعمره خمس وعشرون سنة. كان على رأس القافلة التي أرسلتها خديجة رضي الله عنها، وكان يعمل معها. وفي هذه الرحلة أيضاً التقى راهباً آخر اسمه "نَسْطُورَا"، وقد تَوسّم هذا الراهب فيه أيضاً علامات النبوة.[2]

د- النبي المرتقب والمبشر به

١. دعاء إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام

سأله أحد الصحابة يوماً: ما كان بدءُ أمرك؟ فقال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم.»[3] ويتناول القرآن الكريم هذا الموضوع في آيتين مستقلتين:

الأولى: دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩).

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ١/١٩١-١٩٥.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ١/١٩٩.

[3] كنز العمال للهندي، ١١/٣٨٤.

الثانية: بشرى عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصفّ:٦).

أجل، فرسول الله ﷺ لم يظهر هكذا فجأة، بل هو نبي تمّت البشارة بقدومه منذ عصور وعصور، وكان العالم بأسره في انتظاره.

إن أكبر دليل وبرهان على نبوته هو هذا القرآن الكريم الذي يُعدّ معجزة خالدة أبد الدهر. أجل، ففي القرآن ذي البيان المعجز مئات من الآيات التي تدل وتبرهن على نبوة فخر العالمين. فمن لم يستطع إنكار القرآن بأجمعه، لا يستطيع إنكار نبوته أبداً. غير أن هذا موضوع مستقل لن نتناوله الآن، وشروح الآيات القرآنية التي سنعرضها كأدلة، كلما جاء موضعها، ستساعد في إيضاح هذا الموضوع بعض الشيء.

٢. بشارات التوراة

سنتناول هنا بعض البشارات التي لا تزال موجودة في التوراة والإنجيل والزبور حول رسول الله ﷺ على الرغم من تعرّض هذه الكتب إلى مئات من التحريفات. ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع، فعليه بمراجعة الكتب التي شَرحت وفصلّت هذا الموضوع، ولاسيما كتاب "الرسالة الحَميدية" للشيخ حسين الجِسْر، أما هنا فسنكتفي بإيراد بعض هذه الأدلة التي نراها مهمة.

أ. جبال فاران

جاء في الترجمة العربية لنسخة التوراة المطبوعة في إنكلترة عام ١٩٤٤ ما يأتي: [جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.] (التثنية – الباب: ٣٣، الآية: ٢)، أي أن رحمة الله ﷻ وفضله على الإنسانية ظهرت في سيناء، وهي الموضع الذي كلم الله تعالى فيه النبي موسى عليه السلام، وهذه الرحمة هي النبوة التي أعطيت لموسى عليه السلام؛ أما ساعير فهو فلسطين، وتجلت رحمة الله تعالى فيه بإرساله الوحي إلى عيسى عليه السلام. والمسيح عليه السلام من الأنبياء العظام، وموضع تجليات وأفضال عديدة لله ﷻ؛ ونظراً لأن العديدين التبس عليهم مفهوم التجلي مع مفهوم الظهور، فقد أدى هذا إلى مشاكل عديدة.

أجل، فإن التجلّي عند عيسى عليه السلام هي النفخة الإلهية في مولده؛ أما في جبال فاران فقد ظهر الله تعالى فيها بسر أحديته، ومقام فرديته. وفاران هي مكة، إذ ورد في موضع آخر من

التوراة بأن إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل في فاران، إذن، فإن المقصود من فاران في التوراة هي مكة. فالبشارات الثلاثة متعلقة بالنبي موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو خاتم الأنبياء.

وتستمر هذه الآية من التوراة بالعبارة التالية: [ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سِنّة النار.[1]][2] وهي تدل على أنه سيكون مأموراً بالجهاد.

من المعلوم أن رسول الله ﷺ كان يعتكف قبيل نزول الوحي في غار حراء، حيث يتأمل ويَتحنّث فيه، وكان أول نزول الوحي عليه في هذا الغار.[3] فإذا لم يكن فاران مكة، فأيّ مكان يكون إذن؟ وأيّ مكان شعّ نوراً مثل الدين الإسلامي الذي ظهر منه، وانتشر شرقاً وغرباً؟ ولمّا لم يكن هناك في العالم بأسره مكان آخر، فيه كل هذه المواصفات غير مكة، فإن فاران الوارد في التوراة لا يعني سوى مكة. وكما قلنا سابقاً، فإن الآية رقم ٢ من الباب ٣٣ من كتاب التثنية، والآية رقم ٢٠ من الباب ٢١ من كتاب التكوين، وهي: [وسكن برّية فاران.] تشير إلى الموضع الذي سكن فيه سيدنا إسماعيل عليه السلام. وهذا دليل واضح وقاطع على أن فاران هو مكة، وليس بمقدور أحد أن يثبت العكس، والاعتراضات التي أثيرت في هذا الموضوع اعتراضات سطحية وغير علمية. ثم إن ختام الآية التي تشير إلى أصحابه، وإلى كونه مكلفاً بالجهاد لا يدع مجالاً لأي شك أو شبهة في أن رسول الله محمداً ﷺ هو المقصود، وهو المعنيّ.

ب. من نسل إسماعيل عليه السلام

والآية الثانية من التوراة تقول: [وسوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمر به] (التثنية – الباب: ١٨، الآية: ١٨).

فالله ﷻ يخاطب موسى عليه السلام ويقول له: إنني سأرسل لهم، أي لبني إسرائيل نبيًّا مثلك من بين إخوتهم، وسأجعل كلامي في فمه لكي يبلغهم بأوامري.

والآية رقم ١٩ التي تكمل هذه الآية هي: [ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك].

---

[1] سِنّة النار: أي فأس من النار ذو رأسين. (المترجم)

[2] في الطبعة الإنكليزية للتوراة وردت هذه الآية هكذا: [ومعه عشرة آلاف من الأطهار.] وهي تشير إلى فتح مكة، غير أنهم حذفوا [عشرة آلاف] من التراجم العربية. (المترجم)

[3] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

أجل، فقد أُرسل إلى الإنسانية لكي يتلو عليها آيات ربها، ويعرض أمام عينيها معجزاته، ولكي يعلّم الإنسانية ماهيتها الحقيقية. وبفضله تستطيع البشرية أن تتطهر من أرجاس الطبيعة، فتصبح نقية صافية، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا لحياة القلب والروح، وقد سمت فعلا.

أجل، إنه سيعلّم الناس الكتاب والحكمة، وفي نور الكتاب وضوء الحكمة ستجد الإنسانية نفسها، وتنتبه إلى الآخرة وتلتفت إليها، فتسلك الطريق إلى الحياة الأبدية، وقد سلكت هذا الطريق فعلا.

هناك أيام مباركة وأيام مهمة وكريمة عندنا، وبعضها يعدّ عيداً للمؤمنين، ففي كل أسبوع يعيش المؤمنون فرحة يوم الجمعة. ونعيش هذه الفرحة بمقياس أكبر في عيد الفطر وفي عيد الأضحى. ففي أيام عيد الأضحى يتذكر المسلمون التضحية التي قدّمها النبي إبراهيم عليه السلام، ويبتهلون فيها، ويدعون الله من قلوبهم وبكل إخلاص أن يغفر لهم ذنوبهم، ومن أجل ذلك يهرع بعضهم إلى بيت الله ليتمسحوا بأستاره، وعندما يقفون في عرفات يتوجهون بقلوبهم إلى الله، ويبتهلون إليه بروح محمدية ليغفر لهم.

وأما عيد الفطر فهو عيد مبارك غنيّ بمعانيه، إذ هو تعبير عن الفرحة التي يشعر بها المسلم وهو يعيش فرحة الاقتراب من الرضا الإلهي بعد شهر كامل من الصوم. ولكن هناك عيد آخر يعد عيداً للإنسانية، بل لعالم الوجود كله؛ وهو يوم تشريف الدنيا بمجيء رسول الله ﷺ، أي يوم الميلاد الأحمدي.[1] أي هو اليوم الذي علّق الله ﷻ النور الأحمدي، والسراج المحمدي في سماء الإنسانية مثل شمس مضيئة. أجل، فبهذا النور تبدد ظلام الجاهلية، وغمر النور العالم بأسره، فكان هذا أفضل وأكبر وأعظم نعمة لله ﷻ على الإنس والجن.

بـــ- عهد مظلم

كل عهد اهتزت فيه عقيدة التوحيد يعد عهداً مظلماً، ذلك لأن الإيمان بالله ﷻ الذي هو نور السموات والأرض، إن لم يحكم جميع القلوب، سيطر الظلام على الأرواح، واسودّت القلوب؛ فمثل هذه القلوب المظلمة تبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية، ويعيش صاحب مثل هذا القلب كالخفافيش في دنيا الظلام.

---

[1] اليوم هو يوم الأربعاء الموافق لـ ١٣ تشرين الأول لسنة ١٩٨٩. من التوافقات -ولا نقول الصدف- الجميلة أن تصحيح هذه الأسطر وافق يوم الميلاد الأحمدي.

وتعبير "إخوة بني إسرائيل" الواردة في تلك الآية، تشير إلى نبي يأتي من نسل إسماعيل عليه السلام، والنبي الوحيد الذي أتى من نسل إسماعيل عليه السلام هو نبينا محمد ﷺ. ثم إن الآية تشير إلى أن هذا النبي سيأتي بشريعة مثلما أتى موسى عليه السلام بشريعة. كما أن هذه الآية تومئ إلى أن النبي المبشر به سيكون أُميًّا.

أما الانتقام من غير المطيعين المذكور في الآية فتشير إلى الحدود والعقوبات، وهي غير موجودة إلا في الدين الإسلامي. ولا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ولا يوشع عليه السلام النبي المبشر به في التوراة على الإطلاق، ذلك لأن هذين النبيين هما من بني اسرائيل. ثم إن عيسى عليه السلام لم يأت في معظم المسائل بأحكام جديدة أو بشريعة جديدة، بل كان متبعاً لشريعة موسى عليه السلام.

أما يوشع فمن الواضح جدًّا أنه لا يشبه موسى عليه السلام، لأنه لم يأت بشريعة جديدة، بينما تشير الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ (المزمل:١٥) إلى وجه الشبه بين موسى عليه السلام ونبينا عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أنه لا حاجة بعد هذا إلى أي دليل آخر.

ج. صفاته الأخرى

كان قد اشتهر عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ﷺ بأنهم أعلم الناس بالكتب القديمة. ويروى عنهم أن التوراة التي لم تكن قد حُرّفت بنسبة تحريفها الحالي، كانت تحتوي على هذه الآية: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكِّل، ليس بفَظّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله.[1]

والآن لنفكر: مَن المقصود بهذا في التوراة؟ لا نحتاج حتى إلى تحليل عميق لندرك أن المعنى الظاهري لهذه الآية يتعلق بنبي سيأتي، وندرك من الآية أن هذا النبي ليس سوى النبي محمد ﷺ، فقد أرسل رحمة للعالمين وللناس أجمعين، فكأن هذه الآية تقول له:

إنا نرسلك أيها النبي إلى العالمين مبشراً بالطريق القويم، والصراط المستقيم، ونذيراً لسالكي الطرق المعوجة الملتوية من وخامة العاقبة. ستقف أمام جميع الشرور والرذائل لتَحول دون

[1] البخاري، البيوع ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/١٧٤.

سقوط الناس في هاوية السعير، وستكون نوراً وضياء للتائهين في ظلام هذه الطرق الملتوية لتقودهم من أيديهم إلى الجنة، وإلى رضاء الله.

إنا أرسلناك حِرْزاً للأميين في عهد الجاهلية وملاذاً، فطالما اتبعوك واستندوا إليك، فسيكونون في حرز وأمان، وفي رحمة من الله وفضل. أنت عبدى ورسولي -أجل، فنحن نشهد دوماً في الصلاة عندما نقرأ التحيّات أنه عبد الله ورسوله- لقد وضعتُ لك اسم وصفة "المتوكل"، فلو خاصمك العالم بأسره، وعاداك وحاربك لَما اهتزّت منك شعرة واحدة. أجل، فلكل نبي أفق خاص به في التوكل، أما أنت فلك شأن آخر في هذا الخصوص، لذا فقد سميتك "المتوكل".

ثم يتوجه هذا الخطاب إلى الغيب: هو ليس بالشخص الصخّاب الغضبان على الدوام، الفظ الغليظ، بل صاحب أدب وخلق ووقار ورزانة، ليس بالشخص الذي يصرخ ويشتم في الأسواق، ذلك لأن هذا الأسلوب في جلب اهتمام الناس ليس إلا دليل ضعف، وعلامة غرور.. وهو بعيد عن مثل هذه الصفات الذميمة ومبرأ منها.

لا يقابل السيئة بالسيئة والشر بالشر.. يأتي إليه أحد الأعراب، ويجرّه من ردائه بقوة قائلاً له: "أعطني حقي!" فلا يقابل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة التي تثير الغضب في نفوس صحابته إلا بالتبسم، ثم يقول لأصحابه: «أعطوه حقه.»[1]

أجل، لقد كان يعفو عن أكبر الذنوب، ولكن بشرط ألا ينتهك شرع الله. تأملوا سماحته وحلمه وعفوه مع أهل مكة -الذين آذوه أذى شديداً طوال سنوات- بعد فتحها، وبعد أن أصبح قادراً على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء.»[2]

وَعَد الله ألا يتوفاه ويرفعه إليه إلا بعد أن يهتدي أهل الجاهلية التائهين في ظلمات الباطل بالنور الذي أرسل به. وأنجز الله وعده، فلم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله دينه، وأتم نعمته، وربّى صحابة له، وأتباعاً يمثلون هذا الدين أصدق تمثيل. عند ذلك فقط، كانت مهمته قد انتهت، ووظيفته قد استوفيت.. إذن، كان يستطيع أن يفارق الناس، ويلتحق بحبيبه الحقيقي.. فقد أدى رسالته في الدنيا.

أجل، كانت التوراة تصفه بهذه الصفات، وعندما حان موعد مجيئه، جاء وهذه الصفات بأجمعها متحققة فيه. فالحقيقة أن ما ورد في التوراة يتطابق مع سيرة رسول الله ﷺ، إذن، فمن

---

[1] أبو داود، الأدب ١؛ المسند للإمام أحمد، ٣٧٧/٢.

[2] السيرة النبوية لابن هشام، ٥٥/٤.

هو النبي الكريم الذي تذكره التوراة؟ أهناك شخص آخر في التاريخ تتطابق حياته مع ما جاء أعلاه؟ كلاّ دون شك. إذن، فالمقصود هو الرسول محمد ﷺ، وليس غيره.

٣. بشارات الإنجيل

أ. فارقليط

جاء في إنجيل يوحنا: [قال المسيح: إنني ذاهب إلى ربي وربكم لكي يرسل لكم فارقليط، الذي سيأتي إليكم بالتأويل] (الباب: ١٦، الآية: ٧). ويأتي فارقليط بمعنى روح الحق، الذي يفرق بين الحق والباطل.

أجل، إن رسول الله هو روح الحق، ذلك لأن القلوب الميتة لا تحيا إلا بالحق الذي جاء به. وقد بذل كل شيء، وكافح لكي يوصل الهداية إلى الناس، ولم يتميز الحق عن الباطل إلا بعد هذا الجهاد وهذا الكفاح. إذن، فقد جاء فارقليط الذي بشر به المسيح عليه السلام، وهو خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وجاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ١٥، ١٦): [إن كنتم تحبونني أطعتم أوامري، أما أنا، فسأبتهل إلى الرب ليرسل لكم معيناً آخر، وروح الحقيقة "فارقليط" لكي يبقى معكم على الدوام.] والآن لنتأمل هذه الآيات: [فارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الرب باسمي أي نبيًا مثلي. سيعلمكم كل شيء، وسيذكّركم بما قلته لكم] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ١٤).

[عندما يأتي فارقليط سيشهد لي، وستشهدون أنتم لي] (يوحنا - الباب: ١٥، الآية: ٢٦-٢٧). [ولكني أقول لكم الحق: من الأفضل لكم أن أذهب، لأني إن كنت لا أذهب لا يأتي فارقليط إليكم، ولكني إن ذهبت، أرسله إليكم] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٧). [وعندما يأتي فارقليط يُبكّت العالمَ على الخطيئة] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٨).

جاء الإنجيل باللغة العبرانية في البداية، ثم ترجم إلى اللغة اليونانية، والتراجم العربية الموجودة في أيدينا مترجمة عن اليونانية، ولما كانت كلمة "فارقليط" واردة في الترجمة الأولى إلى اليونانية، فإننا لا نعرف الكلمة الأصلية المقابلة لها في العبرية، وفارقليط هي الترجمة العربية لهذه الكلمة في اليونانية، أي أنها دخلت إلى العربية عن طريق التعريب، إلا أننا لن نقف عند هذه الكلمة لنبني موضوعنا عليها، بل سنحاول رؤية جميع صفات النبي الذي بَشّر بها الإنجيل، وكيفية تطابقها، وملاءمتها مع صفات رسولنا ﷺ.

لنجعل من كلمات عاشق للنبي ﷺ عنواناً.. أجل، فما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي:

بود در إنجيل نعت مصطفى آن سر بيغمبران بحر صفا
بود ذكر حليها وشكل أو بود ذكر غزو صوم وأكل أُو

أي:

نعت المصطفى ﷺ موجود في الإنجيل، هو زعيم الأنبياء وبحر الصفاء، صفاته وشمائله وغزواته وصومه وأكله.. موجود كله في الإنجيل.

ب. رئيس العالم

جاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ٣١) قول المسيح عليه السلام: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ، ولا شيء له فيّ.] وتقول (الآية: ٨ وما بعدها في الزبور، الباب: ٧٢): [ستمتد مملكته من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.. أمامه يركع أهل البادية.. ملوك تَرْشِيش والجزر يحملون إليه الهدايا.. ملوك الشَّبَا وسبأ يقدمون عطايا.. ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم، لأنه ينقذ المسكين المستغيث البائس الذي لا معونة له.. يعطف على الفقير والمحتاج، ويخلص نفوس المساكين إذ يفتدي نفوسهم من الظلم والعنف، ويحفظ حياتهم، لأنها ثمينة في عينيه، ليحيي الملك، ليعط له ذهب شبا، وليصلوا من أجله دائماً، ويطلبوا له بركة الله كل النهار. لتتكاثر الغلال في الأرض، وعلى رؤوس الجبال، وتتماوج مثل أرز لبنان، ويُزهر أهل المدينة كعشب الأرض.. يخلد اسمه إلى الدهر، ويدوم اسمه كديمومة الشمس، ويتبارك الناس به، وتُطوّ به كل الأمم.]

وكما قلنا آنفاً، فإننا دخلنا إلى هذا الموضوع استطراداً ومن أجل إعطاء فكرة مختصرة، وليس في نيتنا الدخول إلى تفاصيله، إلا أننا لا نملك هنا أنفسنا من القول بأنه على الرغم من جميع محاولات النصارى واليهود حاليًا أو في الماضي من الذين تغلغل الغل والحسد إلى عروقهم ونفوسهم، وعلى الرغم من جميع محاولات التحريف التي قاموا بها، فإن التوراة والإنجيل الموجودين حاليًا يحفلان بالكثير من البشارات حول نبوة رسول الله ﷺ، والعديد من الإشارات إليه. وأنا أعتقد أنه بجهود المحظوظين من مؤرّخينا قد نعثر على النُسخ الأقلّ تعرّضاً للتحريف للتوراة والإنجيل والزبور، وعندئذ سيرى فيها الجميع حتى العامة من الناس الإشارات الصريحة الواضحة التي لا تحتاج إلى أي تفسير أو تأويل حول

نبوة رسول الله ﷺ، ولعل الأحاديث التي تخبر عن رجوع المسيحية إلى نقائها القديم إشارة إلى هذا الأمر.[١]

ومن جانب آخر، فإنه من الثابت في القرآن والسنة أن التوراة والإنجيل يشيران إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه، لذا فإن إنكار هذا الأمر يعد انحرافاً وكفراً.[٢]

هـ- قدوم طال انتظاره

لم يكن من ينتظره ويبشر بقدومه واحداً أو اثنين، بل كانوا كثيرين، وكان زيد بن عمرو بن نُفَيْل واحداً منهم -وهو والد الصحابي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة وابن عم عمر بن الخطاب ﷺ- فقد كان من الأحناف، إذ هجر الأصنام ذاكراً أنها لا تضر ولا تنفع. ولكنه كان من الذين توفّوا وهم على أعتاب ظهور النبوة، وكانت له بشارات، أهمها قوله: "إنني أعرف أن ديناً جديداً قد أطلّ، ولكني لا أعرف إن كنتُ أدركه أم لا!"

كانت نسمة قد مسّت قلب زيد.. كانت بمثابة نفحة ربانية فتحت مصاريع هذا القلب تماماً لاستقبال الحق، فكان يؤمن بالله الواحد ﷻ، ويسلم نفسه إليه، ولكنه لم يكن يدري الإله الذي آمن به، ولا يدري كيف يعبده.

ويروي لنا أحد الصحابة وهو عامر بن رَبيعة ما يأتي: سمعت زيد بن عمرو بن نُفَيْل يقول: "أنا أنتظر نبيّاً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه. وأنا أومن به، وأصدّقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيتَه فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نَعْتُه حتى لا يخفى عليك." قلتُ: هلمّ! قال: "هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينَه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه. ثم يُخرجه قومه منها، ويَكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره. فإياك أن تخدع عنه، فإني طُفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم. فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعتّه لك، ويقولون لم يبق نبي غيره."

---

[١] البخاري، الأنبياء ٤٩؛ مسلم، الإيمان ٢٤٤-٢٤٧.

[٢] انظر: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِنْدَهُم في التَّورَاةِ وَالإنْجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ في الإنْجِيلِ﴾ (الفتح:٢٩)، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى بنُ مَريَمَ يَا بَنِي إسرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأتِي مِن بَعدِي اسمُهُ أحمد فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف:٦). وانظر إلى: البخاري، البيوع ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ١٧٤/٢. وإذا أردت التفصيل فانظر إلى: الخصائص الكبرى للسيوطي، ١٨/١-٣١.

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ بقول زيد بن عمرو، وإقراءه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال: «رأيتُه في الجنة يسحب ذُيولاً.»[١]

كان ورقة بن نوفل عالماً نصرانيّاً، وكان ابن عم أمّنا خديجة رضي الله عنها، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

وعندما نزل أول وحي على النبي ﷺ انطلقت به خديجة إلى ورقة فقالت له: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مخرجيّ هم؟» قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُوديَ، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مُؤَزَّراً."[٢]

أما عبد الله بن سلام، فكان عالماً يهوديًّا. لنستمع إليه وهو يشرح كيفية إسلامه: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصَلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام.»[٣]

كان عبد الله بن سلام شخصية مهمة، يقول عنه ابن حجر في كتابه "الإصابة" إنه كان شخصاً مبرزاً، ومن نسل النبي يوسف عليه السلام.[٤] ومدح القرآن شهادته وذكرها كدليل ضد الكفار فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف:١٠).

وشاهد بني إسرائيل الوارد ذكره هنا، هو عبد الله بن سلام. ومع أن بعض المفسرين يذكرون بأن الشاهد المذكور في هذه الآية الكريمة هو النبي موسى عليه السلام على اعتبار أن هذه الآية مكية، ولكن الرأي الراجح هو أن هذه الآية مدنية، أي أن سورة الأحقاف وإن كانت مكية، إلا أن هذه الآية مدنية، وتشير إلى عبد الله بن سلام.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ٢/٢٩٦-٢٩٩.

[٢] البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

[٣] المسند للإمام أحمد، ٥/٤٥١؛ الترمذي، الأطعمة ٤٥، القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٧٤، الأطعمة ١.

[٤] الإصابة لابن حجر، ٢/٣٢٠.

و- لماذا لم يؤمنوا ؟

مع أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنه رسول الله إلا أن حقدهم وحسدهم كان يمنعهم من الإيمان به، ويقف حائلاً دون ذلك. وكانت هذه المعرفة دقيقة وواضحة إلى درجة أن نظرة واحدة منهم لرسول الله ﷺ كانت كافية للإيمان به، ذلك لأنهم كانوا يعرفون هيئة رسول الله ﷺ وشمائله وصفاته، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٤٦).

ولا يصرح الله تعالى في هذه الآية باسم نبيه، بل يذكره بضمير الغائب (ـه)، وهذا يشير إلى أن جميع أهل الكتاب كانوا يعرفون خاتم الأنبياء؛ لذا، فعندما ذكره بالضمير، كانوا يعرفون أنه يعني النبي المذكور اسمه في التوراة والإنجيل، وهو سيدنا أحمد أو محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفون أبناءهم.

ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لعبد الله بن سلام: "أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟" قال: "نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفتُه، وابني لا أدري ما كان من أمه."[1]

١ـ الغيرة والحسد

أجل، لقد كانوا يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولكن الإيمان شيء، والمعرفة شيء آخر.. كانوا يعرفونه ولكن لا يملكون الإيمان به؛ فغيرتهم وحسدهم وقفا حائلين أمام إيمانهم، ومانعين له.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩). يشرح الله تعالى في هذه الآية السبب الحقيقي لعدم إيمانهم برسول الله ﷺ؛ فالقضية كلها تنحصر في عدم كون خاتم الأنبياء يهودياً. فلو ظهر رسول الله ﷺ من بين اليهود، لكان تصرفهم مختلفاً دون شك.

والدليل على هذا أن عبد الله بن سلام بعد أن أسلم قال لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُوني عندك." فجاءت اليهود ودخل

---

[1] مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ١/١٤٠؛ وانظر: الدر المنثور للسيوطي، ١/٣٥٧.

عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأَخْيَرُنا وابنُ أَخْيَرِنا. فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله إليهم فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله." فقالوا: شرّنا وابن شرّنا. ووقعوا به.[1]

وهذه الحادثة تبين بجلاء أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ولا يجهلونه، غير أن عنادهم منعهم من الإيمان به.

ويُعدّ سلمان الفارسي ﷺ دليلاً قائماً وحده في هذا الموضوع.. فقد كان مجوسيًّا أول الأمر، ولكنه كان يتحرّق شوقاً للعثور على الدين الحق، فدخل إلى المسيحية وتَنصّر واعتكف في الكنيسة، وعندما حضرت الراهبَ المنتسب إليه الوفاةُ سأله أن يوصيه براهب آخر، فوصفه له، وهكذا انتقل من راهب إلى راهب، وصحب كثيراً منهم، وأخيراً سأل السؤال نفسه من راهب شيخ يعيش الدقائق الأخيرة من حياته، فقال له ذلك العالم النصراني:

أيْ بنيّ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حَرّتين،[2] بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال ثم مات، وغُيّب، ومكثت بعَمُّورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كَلْب[3] تجّار، فقلت لهم: اِحْمِلوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه، وغُنيمتي هذه. قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القُرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقَّ في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها. وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْق[4] لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل

---

[1] البخاري، الأنبياء ١، مناقب الأنصار ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ١٠٨/٣، ٢٧١، ٢٧٢.

[2] الحَرّة: كل أرض ذات حجارة سود. (المترجم)

[3] كَلْب: اسم قبيلة عربية. (المترجم)

[4] عَذْق: النخلة. (المترجم)

الله بني قَيْلَة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُباء[١] على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العُرَواء[٢] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: ما لك ولهذا! أَقْبِلْ على عملك. قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وكان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء. فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا!»، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة. قال: ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببَقيع الغَرْقَد،[٣] قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليّ شملتان[٤] لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبّله وأبكي، فقال رسول الله ﷺ: «تحوّلْ!» فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه.[٥]

٢ـ شعور المنافسة

يقول المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفتُ رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هل لك إلى الله وإلى رسوله، وأدعوك إلى الله؟» فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنْتَهٍ عن سب آلهتنا؟ هل

---

[١] قُباء: أصله اسم بئر عُرفت القرية بها. (المترجم)

[٢] العُرَواء: الرعدة والانتفاض. (المترجم)

[٣] بَقيع الغَرْقَد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة. (المترجم)

[٤] الشملة: الكساء الغليظ يشتمل به الإنسان أي يلتحف. (المترجم)

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ١/٢٢٨-٢٣٤.

تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتّبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء: إن بني قُصَيّ قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السِقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاكَّت الرُكَب قالوا: منا نبي. والله لا أفعل.[1]

وفي رواية أخرى أن أبا جهل قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب وكنّا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه.[2]

واجتمع رجال قريش وقرروا أن يرسلوا عُتْبة بن ربيعة لكي يكلم النبي، ويقنعه بالعدول عن دعوته. وكان عتبة هذا يعدّ من حكماء قريش، ومن المقدَّمين في قريش، وكان أديباً، وشخصاً موسراً. فقام عُتبة وذهب إلى الرسول ﷺ، وأراد أن يلعب معه لعبة المنطق، فقال له: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال عُتبة: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه. ربما كان سكوته هو الجواب المناسب للأحمق. فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك.

فقال رسول الله: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فبدأ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حٰم ۞ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٨٣/٣؛ كنز العمال للهندي، ٣٩/١٤-٤٠.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ٨٣/٣.

سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١-١٣).

فلما وصل النبي إلى هذه الآية ارتجف عُتبة كمن أصابته حُمّى، ومدّ يده إلى شفتي الرسول ﷺ قائلاً ومتوسلاً: اصمُتْ يا محمد بحق إلهك الذي تؤمن به! ثم قام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوا واجعلوها بي. خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تُصِبْه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب، فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

٣ـ أسباب أخرى

لم تكن هذه الاعترافات اعترافات فردية تعود لشخص أو شخصين، بل كانت هذه قناعة عامة لديهم، ولكن أسباباً سلبية كانت تمنعهم من الإيمان به، مثل مشاعر الخوف والطمع والحرص والعناد. أجل، فمع أنهم يعلمون أنه نبي، إلا أنهم كانوا يعاندون في الإيمان به. ويشرح القرآن الكريم حالهم هذه وهو يسرّي عن الرسول ﷺ، فيقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

إنهم يلصقون بك تهماً عدة، وأنت تحزن من هذه الاتهامات الباطلة ولكن إياك أن تحزن مما يتقوّل عليك هؤلاء البائسون المغلوبون تحت ثقل أجسادهم، الأسارى بيد شهواتهم، العاجزون عن مغالبة عاداتهم. والحقيقة أنهم لا يكذبونك، إذ لا يستطيعون إسناد الكذب إليك، فأنت بريء من الكذب، وقد سبق وأن دعوك بـ"الأمين." وانظر إلى مدى حماقتهم، فهم لا يؤمنون بما يسندونه إليك، ومع ذلك يتجرؤون على ذلك.. إذن، فلا تحزن.

أجل، إن كان هناك من يجب أن يحزن فهو هؤلاء القوم الذين عادَوْا من بيده خير الدنيا والآخرة، والذين لم يفتحوا قلوبهم للنور وهم على مقربة منه.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ٣/٨١-٨٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ١/٣١٣.

ز . بُعد آخر وأفق آخر

إن الإنسان المسكين لهذا العصر، الذي فقد الكثير من مقاييس القيم، انقلبت نظرته وسلوكه وفكره تجاه رسولنا محمد ﷺ رأساً على عقب. هذا، علماً بأنه من الخطأ الجسيم القيام بتقييمه ﷺ بأي مقياس أو ميزان بشري. فهذا أمر مستحيل، ذلك لأنه كان شخصاً لا مثيل له، ولا نظير له، إذ زُوّد بروح وبقابليات متميزة فريدة، وأُرسِل إلى الدنيا لكي ينظمها من جديد، وليفتح للإنسانية آفاقاً جديدة مشرقة. لذا، فإن تقييمه أمر يخرج عن نطاق قدرتنا، وعن نطاق مقاييسنا وموازيننا، لذا فمهما وصفه الواصفون فلن يوفوه حقه، ومن هذا المنطلق أنشد حَسّان بن ثابت ﷺ -وهو من أعرف الناس به- قائلاً:

وما مدحت محمداً بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد[1]

فذِكره السنيّ هو الذي يكسب الجمال للكلام الجميل وللكلمات الجميلة، وإلا فما من شيء في تعابيرنا يمكن أن يكسبه شيئاً. ويكرر الفرزدق المعنى نفسه، ولكن بتصرف قليل. ويستعمل مفكر العصر الكبير بديع الزمان النورسي المعنى نفسه عندما يتكلم عن القرآن الكريم:

وما مدحتُ القرآن بكلماتي ولكن مدحتُ كلماتي بالقرآن[2]

كل هذا نتيجة الاشتراك في الشعور نفسه وفي الفكر نفسه، فكلهم استقوا إلهامهم من نفس المنبع، ومن نفس المصدر؛ فأشاروا إلى الأشياء نفسها بتعابير مختلفة، فما أجمله البعض فصّله البعض الآخر، بينما عبّر الآخرُ عنه بأبيات الشعر.. ولكنهم كانوا يحومون حول المحور نفسه، ويطوفون حول المركز نفسه.

والأمر نفسه وارد بالنسبة إلينا، فنحن نريد أن نتحدث، وأن نعبر عن النعمة الكبرى المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتف من أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأن جعلنا من أمة المصطفى محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته على من يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحدّه قياس.. فهو بحر واسع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلباً لائقاً بسلطان القلوب هذا؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في

---

[1] المثل السائر لابن الأثير، ٢/٣٥٧؛ صبح الأعشى للقلقشندي، ٢/٢٣١.

[2] المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٤٧٧.

قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمداً ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنا مزيّنة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة محمدية، نتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سبباً واحداً فقط في عدم وصولنا إلى مثل هذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية.

إنه الإنسان المصنوع على عين الله.. وإن مجرد مجيئه إلينا كإنسان يعد أكبر سعادة لنا، ذلك لأن الجنّات نفسها، والفردوس نفسه يتشرف بقدومه. وإن وصفه بما هو أهل له لهو من أكبر مهماتنا، وأشرف وظائفنا؛ فالإنسانية لا تبلغ مرتبة الكمال الحقة إلا بعد أن تفهمه بحق، وتتبع خطاه. وقد عقدتُ نيتي على تنفيذ هذا، إلا أنني سبق وأن ذكرت بأنني لست فارس هذا الميدان، ولكن أملي الوحيد هو محاولة إفهامه وشرح آفاقه.. وكل ما أملكه في هذا الخصوص هو نيتي الخالصة.

كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسرّي عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن. ثم تمنيت لو أنني خُلقت شعرة ببدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الذي كان مظهراً لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت معرفة به، تأكدت أكثر بأنني لست أهلاً لتحقق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرتْ كل رغبتي وأملي في أن أكون فرداً من أمته، ذلك لأنني آمل ألا يحرم الله تعالى فرداً من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم: «هم القوم لا يَشْقَى بهم جَليسُهم.»[1]

أجل، فقد عقدت نيتي على محاولة القيام بمعرفة هذه الذات السامية، فما أسعدني إن استطعت قدح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَتِ الحج، فهي تعلم أن أرجلها الضعيفة لا تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب.

إنه إنسان أبعاد أخرى غير هذه الأبعاد.. لذا، فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا هي تعبير أنفسنا حسب تردد موجات ذلك العالم. وعندما يتم هذا، يبدأ التخاطب الصريح،

---

[1] البخاري، الدعوات ٦٦؛ مسلم، الذكر ٢٥؛ الترمذي، الدعوات ١٢٩؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٥٢-٢٥٣.

والتخاطب بالشفرات، وتصدر الأوامر من قِبله هو، إذ يتولّى القيادة والإدارة بنفسه. أما الجماعة التي يقودها، والمجتمع الذي يديره فمجتمع عميق المعاني، سامي الأغراض، تغبطه الملائكة، ويقصر عنه كل وصف وتعبير.

قد يبدو للبعض أن ما نقوله بعيد عن الموضوعية. وهذا أمر يؤسَف له، أيقال هذا، وكل يوم يَتلقّى بعض الشباب من ذوي الوجوه النيرة البشارات المعنوية من رسول الله ﷺ؟ وبعد قيام البعض بالاتصال به مباشرة دون أستار ولا حجب وفي عالم الشهادة نفسه؟

إنه بيننا على الدوام بروحه، وحسب بعضهم بجسده النوراني؛ فالإمام السيوطي يذكر أنه التقى رسول الله ﷺ، وتحدث معه مرات عديدة. أجل، إنه لم يمت بالمعنى الذي نفهمه من الموت، بل غيّر أبعاد الوجود فقط، فمن الخطأ النظر إلى وفاته وكأنها مثل وفاة أي شخص اعتيادي، ذلك لأن القرآن يذكر لنا ألا نقول عن الشهداء -وهم أقل بمرتبتين اثنتين عن الأنبياء- إنهم أموات. إذن، فكيف يجوز لنا أن نقول عنه إنه "ميت" بالمعنى الذي نفهمه عن الموت؟ أجل، لا يسعنا إلا أن نقول إنه انتقل إلى بُعد آخر، لذا فإن الأشخاص الذين استطاعت أنظارهم وأبصارهم الامتداد إلى هذه الأبعاد يستطيعون رؤيته ومشاهدته.

إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معاً وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يوجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟ أجل، إنه يوجد وسيوجد، وسأجعل من كل ما ذكرتُه أساساً وقاعدة لِما سأذكره، لأن تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبينا مهم جداً. فإن كان فهم الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين وحدسهم -دع عنك الأنبياء العظام- يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافاً مضاعفة، هذا علماً بأن درجة معرفة كلٍّ منا وفهمه يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة، فهو كما قال البوصيري:

وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ نيامٌ تَسلّوْا عنه بالحُلُم